عَنْتَرة بن شَدَّاد العَبْسيّ (٥٢٥ـ٦١٥)

١ً حياته: وُلد عنترة في نجد نحو سنة ٥٢٥ ، من أبٍ شريف ومن أَمَة ، فعاش كعبد يرعى إبل أبيه . وأغارت جماعة من طيّئ على عبس واستاقت إبلهم ، فدعا شدّاد عنترة لمكافحة العدوّ ، ووعده بالحرّية ، فكرّ عنترة ونال الحرّية ببسالته. ثم قاد الكتائب في غزوات متوالية على أعداء عبس ، وفي حرب داحس والغبراء . وأحبّ ابنة عمه عبلة فنفرت منه ، فقضى حياته يسترضيها. ثم قُتل نحو سنة ٦١٥ . وقد دخلت حياته الاسطورة وبنيت عليها «قصة عنترة».

٢ً آثاره: لعنترة ديوان شعر اشهر ما فيه المعلّقة التي نظمها في حرب السباق، مفصّلاً فيها مفاخره . وقد دخل شعر عنترة كثير من النّحل ولاسيا بعد ظهور «قصة عنترة» .

٣ً عنترة شاعر الشخصية الفذّة: هو عفيف ، مترفّع عن كل دنيء ، كريم ، شجاع ، رقيق الشعور .

٤ً عنترة الشاعر الغنائي: تألم عنترة وكان صادقاً ، فبـاح بخوالج نفسه في شعر إنساني مؤثّر :

ـ الغزل : حبّه حبّ متيّم ، وهو صادق شريف، كما هو متألم، فكان غزله لوعة كاوية، ودمعة سارية . ولكنه بعيد عن التحليـل النفسيّ العميق . فعنترة يكتفي بالتعبير الساذج من صرخة وأنّة وزفرة .

٥ً عنترة الشاعر الملحمي: اراد عنترة ان يُسكت معيّريه ، ويسترضي عبلة ، فأشاد بأمجاده في ساحات القتال ؛ فكان اسلوبه قريباً من اسلوب الملاحم بما فيـه من وصف وقصص ، وجوّ حربيّ ، وموسيقى حربية .

ـ الوصف والقصص : كان عنترة في وصفه مفاخراً ، ينزع نزعة الايجاز، ويعتمد وقائع تاريخية مضخّمة في خيـاله الذي يستند الى التشبيه الحسّي ويبثّ الحياة في قصصه . وكانت الالفاظ في كل ذلك متوثّبة ، متدافعة ؛ كما كان شعر عنترة الحماسي ممزوجاً بالعاطفة حافلاً بالمعلومات التاريخية .



بريشة الفنان ارتورو اورتس

كم مهمهٍ قَفرٍ بنفسي خضتُهُ ومفاوزٍ جاوَزْتها بالأبجَرِ !..

عنترة

١ً حياته :

١ ـ **الفتى الرّاعي** : ولد عنترة بن شدّاد العبسي المضريّ في بلاد نجد حوالي سنة ٥٢٥ ، وكان ابوه من اشراف عبس ، أما أمّه فكانت أمة حبشية الاصل واسمها زبيبة ، سباها شدّاد في إحدى غاراته . وكان لا بدّ لابن الامة أن تجري في رقبته تقاليد الجاهلية القاضية باستعباد أولاد الاماء ، فلا يدّعيهم آباؤهم إلا اذا أنجبوا. فقام عنترة في بيت أبيه بما يقوم به العبيد، فرعى الابل والخيل، واكتسب في هذه الفترة صفات كانت لها نفسه أطيب أرض وكانت لها ارادته أشدّ مثقف، منها الفروسية والشجاعة ، ولا بدع ان يكون فارساً راعي الخيول النجديّة ، وان يكون شجاعاً من يحيا بإبله وخيله وحوله الوحش والصعاليك المتلصّصة. وقد التقط أيضاً ما تيسّر له من أحاديث البطولة والفصاحة ، تلك البطولة التي تهتزّ لها نفسه الطموح وترمي الى حياة اكرم من حياة العبد ، يحياها في إكبار وأجلال من قبيلته لا في استخفاف منهم وازدراء .

٢ ـ **العبد المتحرر** : قوي الراعي واشتدت ساعده فلم يعد أحد يجرؤ على التحرّش به والتجاوز على حقه . غير أنه لم يزل تحت سلاسل الرقّ ، فلم يُرضه ما بلغه بل لبث في حزنه وترقّب الفرص لاجبار أبيه على ادّعائه وإلحاقه بنسبه ، فيصير ذا صيت واسع في قومه .

وحدث ان جماعة من طيء أغارت على عبس واستاقت من إبلهم ، فدعا شدّاد عنترة الى الكرّ ، فأبى مدّعياً أن العبيد « تحسن الحلاب والصّرّ » . فدعاه ثانية يعده الحرية . فهبّ ، والحرية تزيده بأساً واقداماً ، وقهر العدو ، واستنقذ الابل ، ونال منية نفسه ؛ ورافق الحرية شهرة واسعة تُشيع في عبس ان عنترة بطلها وسيفها القاطع .

٣ ـ **قائد الكتائب** : وما إن عُرف عنترة بالشجاعة والبأس حتى راح يقود الكتائب في غزوات متوالية على اعداء عبس من طيء وغطفان وحنيفة وغيرهم ؛

وراح في حرب داحس والغبراء، قائداً عنيداً شديد الشكيمة، يقضي معظم أيامه على صهوة جواده، عليه درعه وحسامه، ويملأ الارض حوله بذكر شجاعته الحكيمة البعيدة عن التهوّر، والمفعمة بنبالة خلقه.

ولكنّ تلك المآتي الجسام لم تُزل الاحتقار في جانبه من صدور ابناء قومه بل أضافت اليه الحسد، ففاض حاسدوه بالتعييرات والثلب، فكان من ذلك للشاعر البطل مبعث ألم حياته كلّها.

٤ ـ **القلب الواله:** ومما زاد عنترة ألماً انه أحب ابنة عمه عبلة، فنفرت منه ونفر بها ذووها لظواهر الشاعر ـ سواد وفلح شفة ـ ثم لكونه غير اصيل في عروبته من جهة أمه. فقضى عنترة حياته يسترضي ابنة عمه، ويتحبّب اليها بذكر مآتيه العظيمة من شجاعة، وفصاحة، وكرم اخـــلاق، مما يغطي سواد جلده وشوائب نسبه.

٥ ـ **الشيخ القتيل:** توفي عنترة نحو سنة ٦١٥ وله من العمر ما لا يقل عن تسعين سنة. وقد اختلف المؤرخون على كيفيّة موته، والاغلب أنه مات قتيلاً في احدى غاراته على بني طيء.

٦ ـ **بطل الاسطورة:** ما إن مات عنترة حتى أخذت الاساطير تُنسج حوله، وحتى تضخّم عنترة التاريخ وصار ضمن إطار يظهره المثال الاعلى للفارس الكامل والشاعر الفذّ وقد كتبت قصة عنترة في عدّة مجلّدات حتى صارت ـ على حد قول بعض الفرنج ـ «الياذة العرب».

ويظهر عنترة في الاسطورة اشد سواداً، كما يظهر معيّروه ألحّ في الغلظة، وهو البطل المظفّر، عكّاز العاجز وسيف المظلوم، والطمّاح الذي يبذل كل شيء لاجل المجد المخلّد.

ويبدو عنترة من ناحية أُخرى بطل الحب العفيف المعذّب، يغامر في سبيل ابنة عمه عبلة، ويغالي في طلبها؛ ولكن بينه وبينها عقبات صعاباً، من عمه مالك،

وابن عمه عمرو ، ومزاحمه عليها عمارة بن زياد ، وكلهم شديـــدو الغيرة ، وكلهم شديدو الرقابة والعناد . . . وتشتدّ العقبات اشتداداً بالغاً لتقوية اسباب المتعة الروائيّة ، واذا هنالك معارك لا تحصى ، وأهوال بلا قياس ؛ وتشتد كذلك حاجة عبس الى فارسها المغوار ، ويشتد هو بطشاً واقداماً في ذلك الميدان الواسع ويبعث الضربات اثر الضربات ، فتطير النفوس قبل الاجسام .

ثم يموت بعد حياة مليئة باعمال المجد والبطولة ، وهو على ظهر حصانه « الابجر » رفيق حياته ، وذلك بسهم رماه به وزر بن جابر النبهاني الملقب بالاسد الرّهيص .

٢ً آثاره :

١ — **ما هي :** لعنترة **ديوان** شعر فيه نحو ١٥٠٠ بيت طبع للمرة الاولى في بيروت سنة ١٨٦٤ ، وتعدّدت طبعاته في المدينة نفسها . واكثر ذلك الديوان في **الفخر والحماسة** وذكر الوقائع **والغزل العفيف** بعبلة ، وقليل منه في المدح والرثاء . وأشهر ما فيه المعلّقه المشهورة ومطلعها في الاغلب :

هل غادرَ الشُّعراء من مُتَرَدَّمِ　　أم هل عرفتَ الدّارَ بعدَ توهُّمِ [١]

وذهب بعض الرواة الى ان مطلعها هو :

يا دارَ عبـلةَ بالجواء تكلَّمي　　وعِمي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمي [٢]

اما المعلّقة — وقد اختلف الرواة في عدد أبياتها — فهي ميميّة على البحر الكامل يبلغ عدد ابياتها نحو ٧٩ بيتاً . ولها شروح عـــدّة منها شرح الزوزني والتبريزي والانباري . وقد طبعت عدة مرات على حدة ، وترجمت الى اللغـــة اللاتينية والفرنسية .

(١) المتردّم : المحلّ الذي يُصلَح . يقول : لم يترك الشعراء شيئاً يُصلح ، أي لم يتركوا فنّاً إلا دخلوه وابدعوا فيه　(٢) الجواء : بلد بنجد .

وهي قصيدة ذات قيمة كبيرة، نظمها الشاعر ذاهباً فيها مذهب غيره من الشعراء الاقدمين، متبعاً سنّتهم من ذكر ديار ووصف نياق، وفخر بكرم وجود ونجدة؛ إلا انـــه «أسهل ولم يُحزن ويسَر ولم يُعسِّر»، وارتفع عن الاسفاف والابتذال دون ان يتورّط في الغلظة والاغراب، وانتهى الى معانٍ قلّما انتهى اليها غيره من الشعراء»، فوصفها ابن سلّام بانها «نادرة».

١ً الباعث على نظمها : الاغلب ان عنترة نظم معلّقته في اثناء حرب السباق التي انتهت سنة ٦٠٩، وكان الباعث على نظمها أن الشاعر لما اضطر أباه على الاعتراف به لِما أتاه من بيض الفعال، سابّه رُجل من عبس وعيّره سواده وسواد أمـــه واخوته. فاجابه عنترة بما يعلو به، وفخر عليه وقال في ما قاله؟: «إني لأحتضر البأس، واوافي المغنم، وأعف عند المسألة، واجود بما ملكت يدي، وافصل الخطة الصمّاء». فقـــال له الرجل: «انا أشعر منك». قال: «ستعلم ذلك». ثم أنشد معلّقته مفصّلاً فيها مفاخره.

٢ً أقسامها :

١ — القسم الغزليّ :

١ً الوقوف على الاطلال وذكر الاحبّة (١ — ١٢).

٢ً وصف عبلة وتشبيهها بالروضة الأنُف (١٣ — ٢١).

٣ً وصف الناقة (٢٢ — ٣٤).

٢ — القسم الفخريّ : هو مدار القصيدة، وموضوعات الفخر هي :

١ً كرم الُخلق وحرّية الطبع والشرف وسخاء اليد (٣٥ — ٤١).

٢ً بلاؤه في الحروب (٤٢ — ٧٩) — وفي هذا القسم يصف عنترة معركة كان هو قطبها وحسام ابطالها، كما يصف فرسه وعطفه عليه.

٣ً بناؤها : يستهلّ الشاعر قصيدته بوصف الاطلال ولوعة الفراق وما الى ذلك؛ ثم يصف عبلة، وكل ذلك في كلام سهل رقيق. ثم يصف ناقته التي ستوصله الى عبلة. وفي وصفه هذا يحذو حذو كل واصفي الابل فيشتدّ كلامه ويصلب حـــتى يكاد يداني كلام طرفة في نفس الموضوع؛ وما إن انتهى الشاعر من وصف الناقة

حتى عاد الى عبلة يخاطبها ويتودّد اليها ذاكراً محامده بكلام عاد الى رقته وسهولته وانسجامه. وهكذا «كانت القصيدة – على حد قول طه حسين باشا – طائفة من الانغام الموسيقية الكثيرة المختلفة فيما بينها أشد الاختلاف، ولكن فيها نغمة واحدة متصلة منذ تبدأ القصيدة الى ان تنتهي، تظهر واضحة حيناً، وتحسّها النفس وإن لم تسمعها الاذن حيناً آخر. وهذه النغمة التي تكوّن وحدة هذه القصيدة... هي حديث الشاعر الى صاحبته، واستحضار صورتها في نفسه».

٢ – **المنحول في شعر عنترة** : لقد امتزج شعر عنترة التاريخ بشعر عنترة الاسطورة، **وكَثُر النحل فيه** خصوصاً بعد ظهور **«قصة عنترة»** التي جُمعت في أواخر القرن العاشر. فأدخل على الديوان قصائد برمتها حذا فيه الناحلون حذو الشاعر الجاهلي في وصف الحرب والمعارك والفخر بالاعمال الحميدة قصدَ محو السواد في الجلد والشائبة في النسب الى غير ذلك، ومن تلك القصائد التي يغلب انها منحولة اللّاميّة التي مطلعها :

حَكِّم سيوفَكَ في رِقابِ العُذَّلِ (١) وإذا نزَلتَ بدارِ ذُلٍّ فارْحلِ

والبائية التي مطلعها :

لا يَحمِلُ الحقدَ مَن تعلو به الرُّتَبُ ولا يَنالُ العُلى مَن طَبعُهُ الغَضَبُ

وأُدخل ايضاً على شعر عنترة أبيات دُست دساً في قصائده فكانت مضطربة او بادية الغلوّ والاسفاف.

ومن القصائد الثابتة لعنترة بكاملها أو بأكثر أبياتها المعلّقة، واللّامية التي مطلعها :

طالَ الثَّواءُ على رسومِ المَنزلِ بين اللَّكيكِ وبين ذاتِ الحَرْمَلِ

والهائية التي مطلعها :

---

(١) العذّل : الذين يكثرون اللوم.

وكَتيبةٍ لَبَّستُهـا بكتيبةٍ   شَهباء باسِلةٍ يُخافُ رَداها[1]

ولا عجب ان يكثر المنحول في شعر عنترة لكثرة الرواة والقصاصين الذين شُغفوا بأخبار بطل عبس وأحبّوا تلك الشخصية العالية، ونشروا مآتيها بين شعب متعطش الى اخبار البطولة والفروسيّة.

٣ً عنترة شاعر الشخصية الفذّة:

كان عنترة من الشخصيات الكبيرة التي قلّما عُرفت لزمان كزمان الجاهلية. فقد فُطر على صفات حميدة كثيرة تجلّت لنا في شعره الذي صُبغ بصبغة اعترافية ساذجة، رمى من ورائهـا الى محو سواد جلده بذكر بيض خصاله وحميد فعاله، واسترضاء عبلة منية حياته. وانّ من طالع المعلّقة يجد اكثر تلك الاخلاق موضحةً مفصلةً.

١ ــ **العفة** : فعنترة، وان كان من أغربة العرب أسود، وابن أمة، هو قبل كل شيء عفيف تسمو به عفته فوق ما عهدناه عند كثير من الشعراء من تتبـع مواطن اللهو والدنس، فهو إن زار امرأة لم يزرها إلا وزوجها حاضر.

أغشى فتاةَ الحيِّ عند حَليلهـا   وإذا غَزا في الجيشِ لا أغشاهـا

وهو ان بدت جارته غض طرفه:

وأَغضُّ طَرفي ما بدَت لي جارَتي   حتى يُواري جـارَتي مأواها

والسبب في ذلك ان عنترة مالك زمام نفسه لا يتبع هواها:

إنّي امرؤٌ سَمحُ الخليقةِ ماجِدٌ   لا أُتبِعُ النَّفسَ اللَّجوجَ هَواهـا

٢ ــ **الترفع عن كل دنيء** : وتتسع عفته اتساعاً عظيماً، واذا هي ترفع عن كل دنيء، واذا عنترة يترفّـع عن اغتنام الاسلاب:

---

(١) الكتيبة: القطعة من الجيش. الشّهباء: العظيمة الكثيرة السلاح.

هلّا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي
يُخبِرْكِ مَن شهِدَ الوقيعةَ أنني أغشى الوغى وأعِفُّ عندَ المَغنمِ

واذا هو يترفع عن المسألة وعن المأكل الغير الكريم :

ولقدْ أبيتُ على الطَّوى وأظلُّهُ حتى أنالَ بهِ كريمَ المأكلِ

ويترفع عن الاساءة الى الغير لانه سهل المخالقة ، حليم صبور ، وذلك ما لم يُظلم :

أثني عليَّ بما علِمتِ فإنّني سَهلٌ مُخالَقتي إذا لم أُظلَمِ

ولكن صبره هذا ليس ضعفاً ، كما يتضح من البيت السابق ، فإن ظُلم طالب بحقوقه وكانت مطالبته شديدة .

فإذا ظُلِمتُ فإنَّ ظُلمي باسلٌ مُرٌّ مَذاقَتُهُ كطَعمِ العَلقَمِ

وهو يعرف حقوق غيره ، فاذا غزا لا يفكر في سبي النساء من غير مهر ، ولا يأخذ سلعة أحد الا ويعطي عنها ضعفَي ما يأخذ .

٣ ـ الكرَم : وعنترة الى ذلك كريم، **وكرمه عن سجيّة** فهو يُحسن استعمال المال في لهوه ، فيشرب الخمر ويستهلك ماله فيما « عِرضه وافرٌ لم يُكلمِ » ، واذا دعا داعي الندى والعطاء أجاب بقلب رحب ويد مبسوطة :

فإذا شربتُ فإنّني مُستَهلِكٌ مالي ، وعِرضي وافرٌ لم يُكلَمِ
وإذا صَحَوتُ فما أُقَصِّرُ عَن نَدًى وكما عَلِمتِ شَمائِلي وتَكَرُّمي

٤ ـ الشجاعة والفروسية : وعنترة الشريف والكريم هو ايضاً عنترة **الشجاعة والفروسية** . والشجاعة طبع فيه والفروسية حاله الطبيعية ، بل الاقدام شفاء لنفسه :

ولقد شفى نفسي، وأبرأ سقمَها قِيلُ الفوارس: «وَيكَ عَنتَرَ أقدِمِ».

وهو لا يزال على صهوة جواده مستعداً لكل طارئ:

إذ لا أزالُ على رِحالةِ سابحٍ نَهدٍ تعاوَرُهُ الكُماةُ مُكَلَّمِ[1]

وهو يقحم الموت غير هيَّاب:

... فعلَيهِ أقتَحِمُ الهِياجَ تَقَحُّماً فيها وأَنقضُ انقضاضَ الأجدَلِ[2]

الا أنّ شجاعته ليست تهوّراً، فقد كان – على حدّ قول فؤاد البستاني – «مقتصداً في شجاعته، مفكراً في طريقة استعمالها، لا يبذل منها الا بمقدار، مجتهداً في استعمال هذا المقدار القليل لنيل الكثير من التأثير». وقد ذكر صاحب الاغاني أنه قيل لعنترة: «أنت أشجع العرب واشدها». قال: «لا». قيل: «فبماذا شاع لك هذا في الناس؟». قال: «كنتُ أُقدم اذا رأيت الاقدام عزماً، وأُحجم اذا رأيتُ الاحجام حزماً، ولا أدخل موضعاً لا أرى لي منه مخرجاً. وكنتُ اعتمد الضعيف الجبان، فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلبُ الشجاع، فأثني عليه وأقتله».

٥ – الرقة والشعور: وبلاء عنترة في الحروب لم يقسِّ قلبه فقد كان **رقيق الشعور** قوي العاطفة وذلك لانه «عزّ بعد ذلة وتحرر بعد رقّ». فالعذاب والذلّ يدخلان النفس فيختلطان بها ويصفّيان عواطفها ويلطّفان مزاجها. وهذه الرقة رافقت الشاعر في جميع المواطن فهو رقيق حتى على عدوه الذي يقتله، وحتى على فرسه الذي يخوض به المعارك.

فازوَرَّ من وَقعِ القنا بِلَبانِهِ وَشَكا إليَّ بعَبرَةٍ وتَحَمحُمِ[3]

---

(١) الرّحالة: السّرج. السابح: الفرس السريع. النّهد: العظيم الغليظ. تعاورُه الكماة: أي تتعاوره الكماة، ومعناه: يطعنه هذا البطل الشاكي السّلاح مرّةً، وذاك مرّةً. المكلَّم: المجرّح. (٢) الهيـاج: الحرب. التقحم: الدخول في الشيء بشدّة. الأجدل: الصّقر. (٣) ازورّ: مال. اللّبان: الصّدر. العَبرة: الدمعة. التحمحم: صوت الفرس المتقطّع.

لو كانَ يَدري ما المُحاوَرَةُ اشتكى ولَكانَ، لو عَلِمَ الكَلامَ، مكلِّمي¹.

وقد لخص طه حسين باشا صفات عنترة بقوله : «في عنترة معنى الرجولة العربية الكاملة ، فهو رقيق دون ان تنتهي به الرّقة الى الضعف ، وهو شديد دون ان تنتهي به الشدة الى العنف ، وهو صاحب شراب دون ان ينتهي به السكر الى ما يُفسد الُخلق والمروءة ، وهو صاحب صحو دون ان ينتهي به الصحو الى التقصير عمّا ينبغي للرجل الكريم من العطاء والندى ، وهو مقدام اذا كانت الحرب ، وهو عفيف اذا قسمت الغنائم ، وهو يحاول ان يصف من اخلاقه ما يشرف به العربي الكريم فيذكر هذه الخصال التي اشرت اليها ثم يُحس كأنه لم يُحط بخلاله كلها واخلاقه كلها فيقول هذا الشطر الرائع :

وكما عَلِمتِ شَمائلي وتَكَرُّمي» .

هذا هو عنترة كما يتجلى لنا من شعره . وتلك هي صفاته العالية ، وقد كانت تلك الصفات تجتمع الى قوّة ارادة ونفس طمّاحة الى المجد . وقد استطاع بقوة ارادته ان يرفع لنفسه صرحاً من المجد عظيماً . إلا ان مجده الذي بناه بقوّة ساعده وحد حسامه دون المجد الذي بناه بشَباة قلمه . فشعره من أروع شعر الجاهلية وقد كان تنفساً لتلك النفس الشريفة في آلامها وآمالها ، وفي حماستها وفخرها ، فتفرّع من ثم الى فرعين : **الشعر الغنائي ، والشعر الملحمي :**

٤ عنترة الشاعر الغنائي :

١ — عوامل شعره الغنائي : تألم عنترة لانه كان مستعبداً وهو الحرُّ ، واسودَ البشرة وهو الابيض السريرة ، ومحسوداً تهزأ به قبيلته وهو الكريم العالي النفس ، ومحروماً وهو المحب الخالص المحبة والعفيف في محبته . وقد رافقه الألم طول حياته يعمل في عقله فيزيد **افكاره شخصيّة وابتكاراً** ، ويعمل في خياله

(١) المحاورة : المخاطبة .

فيصفّيه، ويعمل في قلبه فيرقّق عاطفته، ويعمل في كلامه **فيسهّل الفاظه** ويبعث فيها موسيقى لطيفة الانغام.

وكان عنترة **صادقاً** في تفكيره، صادقاً في خياله، صادقاً في عاطفته وشعوره، **وعلى صدقه صبغة فطرية ساذجة**؛ فراح يتحدث بلواعج نفسه من غير ما رئاء ولا تلوّن. يتحدث الى عبلة الشاخصة دائماً امامه بصورتها، ويتحدث الى كل من يريد فهم نفسه والانعطاف على حاله، كما يتحدّث الى معيّريه وحساده. وهو في كل ذلك يريد التخفيف مما في قلبه، كما يريد استرضاء محبوبته التي ابتعدت عنه والتي حال بينه وبينها عقبات جسام. واذا نفس عنـــترة الرخيمة الانغام، الشجيّة الزفرات، الشديدة اللهفة، الشريفة المنازع، تتجلى لنا في بساطتها وحرارتها، واذا **الشعر غناء**، فيه من الحزن ما يلتقي وحزن البشر في كل عصر وكل مصر، واذا هو شعر **انسانيّ** خالد شديد التأثير، يحرّك كل نفس ويفتح باب كل قلب.

٢ ـ **الغزَل**: ومن ذلك الشعر الغنائي الصافي الذي نجده عند شاعر عبس: **الغزل**. وغزله يصدر عن **قلب متيّم** يحب عبلة **حبّاً شريفاً وشديداً جداً**، وهو لا يرغب في سواها، وهي عالمة بهذه الرغبة الملحة الامينة:

وَلَئِنْ سأَلتَ بذاكَ عَبلةَ خَبَّرَت ... أَن لا أُريــدُ مِنَ النِّساءِ سِواها

وحبه لعبلة **صادق سخي** حتى ليطيب لعنترة ان يبذل لهـــا نفسه وساعده كما يطيب له ان يبتعد عن كل ما يسوءها:

وأُجيبُهـا إمَّا دعَتْ لِعَظيمةٍ ... وأُعِينُهـا وأَكُفُّ عَمَّا ساها

وهذا الحب متألم لان الحبيبة بعيدة وان كانت صورتها أبداً حاضرة، ومن ثَمَّ فقد صُبغ الغزل كله عند عنترة، بصبغة الالم الذي يمازجه شيء من اليأس، والذي لا يهوي أبداً عن مراتب النبل وسمو الاخلاق، **وكان كله تقريباً بين لوعة كاوية ودمعة سارية**. واللوعـــة ناطقة بلسان الشوق، والشوق ظاهر حتى في الالفاظ والتراكيب وأساليب الاستفهام والتلهف والتعجّب والنداء:

قالوا: «اللِقاءُ غداً بمنعرَجِ اللِّوى» وا طولَ شوقِ المستهامِ الى غدِ!

وقد يتحول الشوق الى نار محرقة.

وتَخالُ أنفاسي إذا ردّدتُها بينَ الطُّلولِ محتْ نقوشَ المِبرَدِ

واللوعة ناطقة بلسان الشكوى والتظلم:

وقد أبعدوني عن حبيبٍ أُحبُّهُ فأصبحتُ في قفرٍ عَنِ الأنسِ نازحِ[١]

وكثيراً ما تتحول اللوعة دمعة تنهلُّ فاضحةً ما في القلب من جوى:

أُعاتِبُ دَهراً لا يَلينُ لناصحٍ وأُخفي الجوى في القلبِ والدَّمعُ فاضحي[٢]

ذلك هو غزل عنترة، وتلك هي النغمة التي يعبّر بها عن حبه المتألم. **وهذا الغزل بعيد عن التحليل النفسي العميق وعن الانطلاق في عالم الروح.** فهو نظرة تتجوّل فيما بين الاطلال مفتّشة عن عبلة وما تركت من آثار، وهو دمعة أمام القباب المرفوعة للرحيل، وهو تشبيه للمحبوبة بالرشإ وما الى ذلك من مستحسنات البدو، وهو إنزال السّحر في عيني عبلة مكان الإثمد، وهو قبل كل ذلك وبعد كل ذلك نفس تذوب ولا تعرف كيف تعبر عن ذلك الذوبان، فتكتفي بتعبير الاطفال من صرخة وأنّة وزفرة.

٥ً عنترة الشاعر الملحمي:

١ – **عوامل شعره الملحمي**: تغنّى عنترة بآلامه وعبر عن لواعج نفسه، ولكنه أراد من جهة أخرى أن **يُسكت معيّريه وحساده، ويملأ عين عبلة** فتنسى لونه وما يرميه به خصومه، فأشاد بأمجاده في ساحات القتال وحسن بلائه في حرب داحس والغبراء مما يجعله خيراً من مُعمٍّ مُخْوِل:

إن كنتُ في عَدَدِ العبيدِ فهمّتي فَوقَ الثُّرَيَّا والسِماكِ الأعزَلِ[٣]

وبذابلي ومُهنّدي نِلتُ العُلى لا بالقَرابَةِ والعديدِ الأجزَلِ[٤]

---

(١) النازح: البعيد (٢) الجوى: شدّة الوجد من عشق (٣) السّماك الأعزل كوكب (٤) الذابل: الرمح.

وهو أبداً يستدعي عبلة لتشهده في المعارك وتسمع عنه، بل هي دائمـــاً امام عينيه يخاطبها وينبّه فكرها الى اعماله الغرّاء، ويحرّضها على تتبع مواقفه، فتوقن أنه أفضل من حسّاده ومُعيّريه، وأنه رجل أيّ رجل وبطل أي بطل.

٢ – اسلوبه: تلك غاية عنترة في حماسيّاته. وأما اسلوبه الشعري فيها فهو يقترب من اسلوب الملاحم. فإن الشاعر، وإن قصَّر نفسه ولم يأت إلا بالمقطوعات دون التفصيل الطويل، وإن لم ينسَ نفسه في ما رواه بل جعلهـــا قطب دائرة القتال ومحور الكلام ومرجعه وذلك توخياً للغاية المذكورة، فهو يبدو في حماسياته وفخرياته هذه ذا نفس ملحمي يتجلى في الوصف وفي القصص وفي الجوّ الذي يخلقه خيال الشاعر كما يتجلى في موسيقاه الشعرية والفاظه الشديدة التأثير.

الوصف والقصص: لجأ الشاعر في هذا النوع من شعره – وهو منثور في مجمل قصائده – الى الوصف والقصَص. فوصف فرَسه، ووصف الفارس الذي يهاجمه، ووصف أسلحة القتال، ووصف المعارك وصفاً قصصياً؛ فكان في وصفه لفرسه دقيقاً، وكان فرسُه مناسباً لصاحبه في الجرأة والإقدام.

وكان عنترة في وصف الفارس الذي يهاجمه مفاخراً، واذا فارسه هـــذا بطل عنيد جبار، واذا عنترة يصرعه بضربة أو طعنة – وهي خطّة ساذجة مؤثرة في الافتخار –:

ومُدَجّجٍ كَرِهَ الكماةُ نِزالَهُ   لا مُمعِنٍ هَرَباً ولا مُستسلِمِ[1]
جادَت يَدايَ لَهُ بعاجلِ طعنَةٍ   بِمُثَقَّفٍ صَدقِ الكُعوب مُقَوَّمِ[2]
فتركتُهُ جَزَرَ السِّباعِ يَنُشنَهُ   يَقضَمنَ حُسنَ بَنانِهِ والِمعصَمِ[3]...

وكان عنـــترة في وصف الاسلحة والمعارك مبوّقاً مدوّياً، يتكلم بصلصلة السيوف وطعنات الرّماح، وهو في كل ذلك ينزع الى الايجاز ولا يتتبع التفاصيل والحركات بل يكتفي بالقليل وبما هو من الضرب والطعن، والكرّ والفرّ.

---

(١) المدّجج: المغطّى بالسلاح. لا ممعِن...: أي انه لا يركن الى الفرار ولا يستسلم، بل يصمد في حومة القتال (٢) المثقّف: الرّمح. صَدق الكعوب: صُلب؛ والكعوب هي عُقد الانابيب في قناة الرّمح (٣) الجزَر: ما يُذبح من شيـــاه او نوق. ينُشنَه: يتناولنَه. قضَمه: كسره باطراف اسنانه وأكله.

وعنترة في وصفه وقصصه يعتمد **وقائع تاريخية**، ويدع لخياله أن **يضخم الحوادث الحربية** ويصبغها بالصبغة الملحمية، كما يضخم الجوّ الحربي نفسه والجوّ الحماسي كله؛ واذا **المغالات الساذجة** يعبق بها ديوان شاعر عبس، واذا هي في جوّها الملحميّ غير مكروهة :

إذا ما مَشَوا في السَّابغاتِ حَسِبْتَهُمْ   سُيولاً وقد جاشت بهنَّ الأباطح[1]

وخيال عنترة يعتمد في وصفه على **التشبيه الحسي** بما هو من عادة الجاهلية ومما هو من وحي الفِطرة؛ وهو يبثّ ايضاً **الحياة** في وصفه وقصصه؛ ومن اساليبه في ذلك التشخيص، فتراه يشخص فرسه والرماح والسيوف :

فازورَّ من وَقعِ القنا بلَبانِهِ   وشكا إليَّ بعَبرَةٍ وتَحمحُمِ!..

٣ ـ **لغته** : أما لغة عنترة في شعره الملحمي فهي **لغة متوثّبة، متدافعة**، ينفخ فيها النفس الحماسي، فتجري مع طعنات الرّماح، وجلبة المقاتِلة، واندفاع الخيول، في موسيقى ملحمية تحمل على الحماسة والاقدام :

والخيلُ تعلمُ والفوارسُ أنّني   فرّقتُ جمعَهُم بضربةِ فَيصَلِ[2]...

٤ ـ **امتزاجه بالعاطفة** : إلا أن شعر عنترة الحماسي **ممزوج بالعاطفة** المتألمة الشاكية المسترضية، وهذه العاطفة تُلينّه بعض اللين وتصبغه بصبغة غنائية في مواطن كثيرة، وتجعله من ثَمَّ ذا حديث في النفس غير حديث الحرب والحماسة :

ولقد ذكرتُكِ والرّماحُ نَواهلٌ[3]   مِنّي وبيضُ الهندِ تقطُرُ من دَمي

فوَدِدْتُ تقبيلَ السُّيوفِ لأنّها   لمعَتْ كبارِقِ ثغرِكِ المُتَبَسِّمِ

زد على ذلك أن هذا الشعر يحمل الينا **معلومات تاريخية** شتى عن حروب تلك الايام واسلحتها وعن اخلاق العرب وعاداتهم.

هذا هو عنترة بن شدّاد في نفسه الشريفة وقلبه الكبير، في آلامه وآماله، في

---

(١) السابغات : الدّروع الطويلة . جاشت : غلت . الأباطح ج أبطح وهو مسيل واسع فيه رملٌ ودقاق الحصى (٢) الفَيصل : السّيف القاطع (٣) نواهل : شاربة .

الحُطَيئة شاعر المدح والهِجاء (؟ـ ٦٧٩ م/٥٩ هـ)

١ً حياته : كان الحطيئة مضطرب النّسب ، فأنكره أقاربه ، فتشرّد متنقّلاً من قبيلة الى قبيلة ، متقلّباً من نسب الى نسب ، يمدح من أعطاه ويهجو مَن ردّه . وتزوّج بأمّ مُلَيكة وأظهر لامرأته وأولاده عطفاً كبيراً . ثم أسلم وكان إسلامه رقيقاً . وتُوفي نحو سنة ٦٧٩ م/٥٩ هـ .

٢ً آثاره : للحطيئة ديوان شعر فيه مدح وهجاء وفخر ونسيب .

٣ً الحطيئة شاعر التكسّب :

١ ـ المدح : اجاد الحطيئة المدح فكان اذا مدح رفع . وقد ضمّن مدحه كل ما من شأنه ان يستدر أكفّ الممدوحين ويتخلّل مدحه استعطاف رقيق مؤثّر .

٢ ـ الهجاء :

ـ عوامله : طبع الحطيئة وحاجته الى المال .

ـ انواعه : هجاء الحطيئة نوعان : هجاء للتكسّب ، وهجاء لإرضاء حاجة النفس .

ـ اسلوبه : لم يلجإ الحطيئة الى الفحش والإقذاع بل الى التهكّم الدقيق المؤلم .

٤ً فنّه : كان الحطيئة من المدرسة الاوسيّة ، فنظم شعره بتأنٍّ ، ونقّحه وهذّبه ، فكان متيناً قويّ السبك . ثم انه لجأ فيه الى التصوير الحسّي .

١ً حياته :

١ ـ نشأته : جرول بن اوس الملقب بالحطيئة من بني عبس من مُضَر ؛ وُلد من أمة اسمها الضراء ، فكان مضطرب النسب غير صريح القرابة . وطلب الالتحاق بإخوته من أبيه فلم يُفلح ، فهجاهم . والتحق بأهل امرأة أَبيه من بني ذُهل ، فلم يلقَ عندهم خيراً ، فهجاهم وانصرف عنهم .

٢ – **تشرّده وتلونه** : لم تعد حياة الحطيئة ، مذ ذاك ، سوى تنقل مستديم من قبيلة الى قبيلة ، وتقلب من نسبٍ الى نسب . فتضاءلت في نفسه حوافز الشرف والاباء ، وانقبضت فيه عواطف الحياء ، فراح يسعى وراء المنفعة ، يتطلبها بشعره حيثما وُجدت فيمدح مَن أعطاه ويهجو من ردّه .

وكأن خشونة حياته وتفاقم الاخفاق على مساعيه قد أضعف في قلبه حبه للناس والحدب عليهم ، فغلب على لسانه الشعر الهجائي ، حتى صار في أواخر العهد الجاهليّ ذلك الانسان الذي يُخشى جانبه ويبعث في النفوس اشمئزازاً . ولا عجب في ذلك وقد غدا الحطيئة تلك النفس الجشعة المنحطة ، المسارعة الى الانتقام والتشفّي ، والتي لم يبقَ فيها من مخلَّفات الانسان سوى تلك القوّة الشعرية المتوقدة الـــتي كانت الايام تزيدها تلهّباً واستكلاباً ، حتى نالت بأذاها أقرب الناس الى صاحبها ، فهجا اهله وذوي نعمته وهجا نفسه .

٣ – **زواجه** : وتزوّج الحطيئة بأم مُليكة . والمعروف أنه قد أظهر لامرأته وأولاده من العطف ما لا يُنتظر من رجل مثله ، وهذا دليل على أن خبثه كان في قسم منه وليد الاحوال المعاكِسة التي وقفت في وجهه .

٤ – **اسلامه** : وأسلم الحطيئة في اواخر حياة محمد إلا ان إسلامه كان رقيقاً ، فلم يصل الى قلبه ، بل لبث الرجل فاسد الدين ، متقلباً من حال الى حال ، لا يكف عن الهجاء مورد رزقه ، ولا يلجم لسانه عن الطعن بالناس . فكان يداري مرّةً بالمال ، ويُعاقب مرة اخرى بالسجن[1] .

٥ – **وفاته** : توفي الحطيئة نحو سنة ٦٧٩ ، ويروى انه لما حضرتـــه الوفاة

---

(١) يروى من هذا القبيل ، ان الزبرقان – وهو رجل موسر – صادف الحطيئة يطلب الرزق بذويه ؛ فتعهّد لهم به ، على ان يُصفيه الشاعر المدح ؛ وارسلهم الى بيته ؛ فأحسنت زوجة الزبرقان استقبالهم ، ثم انقادت لوشاية عليهم فصرفتهم . فأتوا بني أنف الناقة ، ولهؤلاء موجدة على الزبرقان ، وان كانوا من قومه ؛ فدح الحطيئة بني أنف الناقة وهجا الزبرقان ومما قاله بني أنف في الناقة :

قَومٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ ... ومَن يُسَوّي بأنفِ الناقةِ الذّنَبا

فرفع عنهم بهذا البيت عار اسمهم ، بل صار لهم ذلك اللقب فخراً .

أوصى ان يُحمَل على أتان الى ان يموت ، قائلاً في ذلك ان الكريم لا يموت على فراشه . فحُمِل على اتان تذهب وتجيء به وهو يقول :

لا أحدٌ أَلأمُ مِن حُطَيَّهْ   هجا بَنيهِ وهجا المُرَيَّه
مِن لُؤمِهِ ماتَ على فُرَيَّه[1]

٢ً آثاره : للحطيئة ديوان تصرّف الرُّواة بقسم من شعره ؛ طُبع للمرة الاولى في القسطنطينية سنة ١٨٩٠، ثم طُبع في ليپسيك سنة ١٨٩٣، ثم في مصر سنة ١٩٠٥ . وفيه مديح ، وهجاء ، وفخر ، ونسيب .

٣ً الحطيئة شاعر التكسب (بالمدح والهجاء) : كان الشعر ثروة الحطيئة الوحيدة ، والوسيلة لديه الى العيش ، فراح يستغلها ؛ فيضرب في البلاد وينتسب الى من يرى عنده منفعة لنفسه ، ويمدح مَن يُكثر له العطاء ، ويتسلّح بالهجاء على كل من يردّه خائباً . وقد صرّح بحاجته الى التكسب عندما استعطف الخليفة عمر بن الخطاب بعد ان عاقبه وحبسه لاجل هجاء موجع قاله :

ماذا تقولُ لِأفراخٍ بذي مَرَخٍ   زُغْبِ الحواصِلِ ، لا ماءٌ ولا شَجرُ[2]
أَلقيتَ كاسِبَهُمْ في قَعرِ مُظلِمَةٍ   فاْغفِرْ ، عليكَ سلامُ اللهِ ، يا عُمَرُ[3]

١ – المدح : اجاد الحطيئة المدح فضمّنه كل ما من شأنه أن يستدرّ أكفّ الممدوحين . فكان اذا مدح رفع . ومديحه يمتزج احياناً بالاستعطاف الرقيق المؤثر ، كما يندفع احياناً اندفاعاً شديداً يأتي على اثر إكرام قوبل به الشاعر . قال الحطيئة في مدح آل شماس :

---

(١) المرَيّه : تصغير المرأة . الفُرَيّة : الأتان وهي أنثى الحمار . (٢) ذو مرَخ : اسم وادٍ بالحجاز . الزُّغب ج أزغب وهو ذو الزّغب ؛ والزّغب هو الصغير الدقيق من الريش . الحواصل ج حَوصلة وهي مَعِدة الطائر . يقول : ماذا تقول لأطفال صغار ليس لهم مأكل ولا مشرب (٣) كاسبهم : الذي يكسب لهم العيش . المظلمة : البئر المظلمة .

أولئكَ قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البُنى، وإن عاهدوا أوفَوْا، وإن عقدوا شَدُّوا[1]

وإن كانتِ النُّعمى عليهم جَزَوا بها وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كَدُّوا[2]

٢ ـ الهجاء :

١ ـ عوامله : كان الحطيئة **ميالاً الى الهجاء من طبعه**، كما كان ميّالاً الى **مخالفة الناس في ما يرون**، فيُنكر ما يستحسنون، لا لشيء إلا لأنهم يستحسنونه؛ ويستحسن ما يُنكرون، لا لشيء إلا لأنهم يُنكرونه. وكان بسبب ذلك أحياناً متقلباً في رأيه، فيعيب ما كان قبلاً في نظره من المحامد، ويمدح ما كان قبلاً من المخازي؛ لا يحكِّم في كل ذلك إلا ميل الساعة ووحي الحال.

ثم إن **حاجته الملحة الى المال** أهابت به ان يهجو الناس طلباً للرزق؛ وقد هابه الناس واتقوا شرّه بأموالهم؛ ويُروى من هذا القبيل ان الخليفة عمر بن الخطاب اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم، وقال له: «إياكَ وهجاء الناس!» فقال: «يموت عيالي جوعاً: هذا مكسبي ومنه معاشي».

٢ ـ انواعه : وهكذا كان هجاء الحطيئة مقسوماً قسمين: قسماً **للتكسب والتشفي** كهجائه للزّبرقان، وقسماً **لارضاء الحاجة في نفسه ولارضاء نقمته**، كالذي قاله في نفسه وفي اقربائه وضيوفه.

٣ ـ اسلوبه : لم يلجأ الحطيئة في هجائه الى الفحش والاقذاع في القول، فقد كان لسانه عفيفاً بخلاف ما كان يُنتظر من رجل مثله؛ بل لجأ الى التهكم، فكان سلاحه، يرمي به الناس في مقامهم الاجتماعي، ويعيب فيهم البخل والجبن، كما ينعى عليهم ضعف الهمّة والقعود عن طلب المعالي، مُفضّلاً عليهم مَن كانوا لهم خصوماً، ومضمّناً هجوه شكوى فيها وعظ ومعاتبة. وان لم يكن

(١) البُنى ج بُنية وهي ما يُبنى. يقول: انهم قوم يحسنون العمل، ويبرّون في العهود والوعود

(٢) يقول: انهم لا يتركون معروف الغير بلا مكافأة؛ وهم اذا أنعموا لا يُفسِدون نُعماهم بسوء صنيعها وإتعاب من صُنعت اليهم.

تهكمه غليظاً، فهو دقيق مؤلم يصيب في الصميم، وذلك لما للحطيئة من قدرة على استجلاء مواطن النقص، وإرسال الشعر الجارح. قال يهجو الزّبرقان:

لمَّا بَدا لِيَ مِنكُمْ غَيبُ أَنفسِكُمْ ... ولم يكُن لِجراحي فيكُمُ آسي[1]
أزمعتُ يأساً مبيناً مِن نَوالِكُمُ ... ولن ترى طارداً للحُرِّ كاليأسِ[2]
دَعِ المكارِمَ لا ترحلْ لِبُغيَتِها ... واقعُدْ، فإنَّكَ أنتَ الطاعِمُ الكاسي[3]

وقال يهجو زوج أمه:

لحاكَ اللهُ ثمَّ لحاكَ حقّاً ... أَباً، ولحاكَ مِن عمٍّ وخالِ[4]
فنِعمَ الشَّيخُ أنتَ لدى المخازي ... وبِئسَ الشَّيخُ أنتَ لدى المعالي
جَمعتَ اللُّؤمَ، لا حيَّاكَ ربّي ... وأبوابَ السَّفاهةِ والضَّلالِ

٤ً فنه: ينتسب الحطيئة الى المدرسة الاوسيّة، فلا عجب ان ظهرت في فنّه جميع **الميزات الاوسيّة**.

١ - **الرويّة والتأني**: الحطيئة يعنى بشعره عناية شديدة، **وينقحه** ولا يذيعه إلا وقد استقام له من كل الوجوه، وبدا له **متيناً حسن السبك**. فالحطيئة، وان جعل الشعر وسيلة للتعيش، لا يغفل عن انه فنّ، **يأخذ به مأخذ الصنعة**، ويتريّث في نظمه متّبعاً في ذلك زهير بن ابي سلمى الذي كان الحطيئة معجباً باسلوبه. وهكذا جاءت معاني الشاعر، وان قل فيها الابتكار، مكتسية **جدّة** اتتها من قوّة **السبك وعمل الصقل**؛ وقد ابعدتها تلك الصبغة عن الابتذال.

٢ - **التصوير الحسيّ**: والحطيئة يعتمد التصوير الحسي في شعره، فيميل الى **الواقعية** التي تجسم الفكرة وتكسوها مادة. قال في هجو الزبرقان:

---

(١) الآسي: الطبيب والمداوي. يقول: لما ظهر لي ما في دخيلتكم من بغض، ولم يكن فيكم من يهتمّ لحاجتي... (٢) أزمعتُ: صمّمت. النّوال: العطاء (٣) يخاطب الزبرقان ويقول له: اعدل عن المكارم ولا تطلبها لانها ليست من شأنك، واكتفِ من الاعمال بأن تكون آكلاً مكتسياً (٤) لحاك الله: قبّحك الله.

لقد مَرَيتُكُمُ ، لو أنَّ دِرَّتَكُم   يوماً يَجيءُ بها مَسحي وإبساسي[١] ...
جارٌ لِقَومٍ أطالوا هُونَ مَنزلهِ   وغادَرُوهُ مُقيماً بَين أرماسِ[٢]
مَلّوا قِراهُ وَهرَّتهُ كِلابُهمُ   وَجرَّحوهُ بأنيابٍ وأضراسِ[٣]

بعض المراجع

١ ً المراجع العربية :

طه حسين : حديث الاربعاء ــ الجزء الاول ــ القاهرة ١٩٢٥ ص ١٥٣ ــ ١٧٧

فؤاد افرام البستاني: الحطيئة ــ الروائع ٢٩ ــ بيروت ١٩٣٠

منير البعلبكي : ــ الحطيئة ــ الأديب ٤ (١٩٤٥) ــ العدد ٩ ص ٤٠ ــ ٤١
ــ شخصيّة الحطيئة على ضوء علم النفس ــ الثقافة ٥ ص ٥٧٢

٢ ً المراجع الاجنبية :

Coldziher : Al-Hotai'a, in Encycl. de l'lslam, II, 369-370.

موضوعات للبحث

١ ــ قال الاصمعيّ : « زهير والحطيئة واشباههما عبيد الشعر ، لانهم نقّحوه ولم يذهبوا فيه [مذهب] المطبوعين » . أوضح هذه الفكرة وناقشها .

٢ ــ سُئل الحطيئة يوماً : « مَن أشعر الناس ؟ » فأخرج لسانه ثم قال : « هذا اذا طمع » . [ما معنى] كلام الحطيئة ؟ أوضحه وأوضح محل الهجاء في حياته وفي شعره .

٣ ــ اعمد الى قصيدة من نظم الحطيئة واستخلص منها ميزات الشاعر الفنيّة في تفصيل عناصرها .